مصادر المعرفة ووسائلها

في القرآن الكريم

د. محمد عياش الكبيسي

كلية الشريعة - جامعة قطر

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.

أما بعد ، فلا يزال الباحثون في «المعرفة الإنسانية» يختلفون في تحديد مصادرها الصحيحة ، ومن ثم في وسائلها ، والمباحث المتعلقة بها إلى حد التناقض أو التضاد.

فإذا كان هنالك من عدَّ العقل المصدر الأساسي للمعرفة لأنه الملكة التي لا يمكن أن تخدع[1] ، فإن هناك من يقول : «إن المصدر الصحيح والوحيد للمعرفة والعلم الذي لم يعد للعالم الآن عدول عنه هو الملاحظة والتجربة دون غيرها من المصادر والمنابع»[2]

وإذا كان حجة الإسلام الغزالي -رحمه الله- قد شكك في طرائق المتكلمين والفلاسفة العقلانيين ، كما شكك في نتائج الحواس ، فإنه مال في نهاية المطاف إلى منبع للمعرفة يؤدي إلى اليقين عنده وهو طريق المجاهدة والرياضة الروحية الموصل إلى تزكية النفس ومن ثم إلى انكشاف الحقيقة بصورة لا تقبل التشكيك.[3]

وربما يقف في مقابل كل من تقدم من يقول: «إن أهل الحديث هم أهل الحق والهدي ، وأن غيرهم أولى بالضلال والجهل»[4].

إن هذا التباين في مصادر المعرفة هو الذي قاد -ولا يزال- الصراع الفكري والفقهي الخطير الذي عدّد في الأمة دوائر الولاء والانحياز ،

---

(١) الحقيقة ، د. نظمي لوقا ، ص٢٩.

(٢) هوامش على كتاب: نقد الفكر الديني ، محمد حسين آل ياسين ، ص٣٢ ، والقول لصادق العظم.

(٣) المنقذ من الضلال ، حجة الإسلام الغزالي، ص١٢٦ -١٢٧.

(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج٤، ص٥٣.

وهذا بخلاف التعددية الاجتهادية التي تثري الميادين الفكرية والفقهية مع الاحتفاظ بهوية الأمة وثوابتها من خلال الاتفاق على مصادر التلقي ، وترتيب أولوياتها.

وبما أن المسلمين متفقون على حجيّة القرآن وقطعية ثبوته، فلا بدّ من بحث هذا الموضوع الخطير في موارده القرآنية، لنرى أين تقف هذه الاتجاهات المتصارعة من القرآن الكريم؟ ثم لنرى مدى صدق الفصل بين الدوائر المعرفية الثلاث: المعرفة العلمية ، والمعرفة الفلسفية ، والمعرفة الدينية؟[1]

وهذا البحث خطوة سبقتها خطوات أوسع في طريق الإجابة عن كل هذه الأسئلة وما يقاربها، إلا أني مقتنع أولاً بأن هذا الموضوع يحتاج إلى جهود متواصلة ومتنوعة ، وثانياً أن القراءة القرآنية الخالصة قد تستطيع أن تجلي الحقيقة بصورة أوضح لا سيما إذا ابتعد الباحث عن الأحكام المسبقة التي تترتب في ذهنه من خلال التأثر بمناهج أخرى حتى ولو عاد بعد ذلك إلى القرآن الكريم.

فهذا البحث إذاً محاولة لدراسة المعرفة بمصادرها ووسائلها كما وردت في آيات الذكر الحكيم.

والله الموفق لكل خير.

---

(١) ينظر الفلسفة والدين في المجتمع العربي المعاصر ، د. فؤاد زكريا المطبوع ضمن مجلة المستقبل العربي ، العدد ٧٦ ، سنة ١٩٨٥م ، ص١١١.

بين العلم والمعرفة:

ورد ذكر المعرفة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة مثل قوله - تعالى-: ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾[1] وقوله - تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾[2]

والملاحظ أن المعرفة بكل صيغها وفي كل مواضعها في القرآن الكريم لم تأتِ منسوبة إلى الخالق -تبارك وتعالى- وربما يكون هذا لأن المعرفة لا تكون إلا بعد جهل مسبق بخلاف العلم حيث وصف الله به نفسه في مواضع كثيرة وبصيغ مختلفة مثل -قوله تعالى-: ﴿فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾[3] ، ﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾[4] ، ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾[5].

والعلم قد يضاف إلى الإنسان ، إلا أنه مقيد بقيود [6] مثل قوله - تعالى-: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[7] و ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾[8]

وقد ذكر الباحثون فروقاً بين العلم والمعرفة ، وهي فروق ظنية ليس عليها دليل قاطع[9] ، وهذه الفروق لا تهمنا تفاصيلها بقدر ما يهمنا الفرق المجمل وهو أن العلم أكمل من المعرفة ، ولهذا يسمى الحق - تعالى-

---

(١) سورة النمل: ٩٣

(٢) سورة الأنعام: ٢٠

(٣) سورة البقرة: ٢٩

(٤) سورة الأنعام: ٧٣

(٥) سورة يونس: ٤٠

(٦) منهج السلف بين العقل والتقليد، د. محمد السيد الجليند: ص١٢٨

(٧) سورة الإسراء: ٨٥

(٨) سورة الروم: ٧

(٩) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبدالرحمن الزنيدي ، ص٤٣-٤٥.

بالعالم دون العارف[1].

وبناءً على هذا فلا يجوز بحال لأي مسلم أن يعكس القضية فيسمي «الدين» «المعرفة الدينية» ، بينما يطلق على معارف الإنسان «العلم».

صحيح أن باب اللغة قد يتسع لتسمية المعارف الإنسانية «علما» بمعناه المحدود إلا أن هذا الباب لا يتسع لتسمية «الدين» معرفة إلا على معنى إدراك الإنسان للعلوم الدينية فتنسب المعرفة هنا إلى الإنسان وليس إلى «الدين» أو «الله».

الله المصدر الأول للمعرفة الإنسانية:

إذا كان الإنسان مخلوقاً لله -تعالى- والكون كله مخلوق كذلك، ووسائل اتصال هذا الإنسان بالكون من حوله كالعقل والحواس هي مخلوقة لله أيضاً ، فإن الخالق الحق لمعارف الإنسان إنما هو الله -تعالى- والقرآن يؤكد هذه الحقيقة بآيات كثيرة نذكر منها:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[2] .

﴿الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان ، علمه البيان﴾[3].

﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾[4]

﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا

---

(١) التعريفات للشريف الجرجاني ، ص٢٧٥

(٢) سورة النحل: ٧٨

(٣) سورة الرحمن: ١-٤

(٤) سورة العلق: ١-٥

إنك أنت العليم الحكيم﴾[1]

إن القرآن يؤكد هنا أن مصدر المعرفة الحق للإنسانية ، إنما هو الله-تعالى-[2] ، ولكن الإنسان قد يتساءل عن كيفية تلقي الإنسان لهذه المعرفة عن الله -تعالى-؟

إن القرآن الكريم يُجيب وفي الآيات السابقات نفسها عن هذا التساؤل، فالله خلق الإنسان، وخلق له السمع والبصر والفؤاد ليتفاعل مع عالم الشهادة من حوله، ونتيجة لهذا التفاعل وبحدوده تحصل المعرفة الإنسانية لهذا الكون القريب ، أما علم الغيب الذي لا تدركه حواسُ الإنسان فإن الوحيَ الإلهي هو الذي يزود الإنسان بما ينفعه من تلك المعارف الغيبية.

ولذا نرى القرآن الكريم بقدر ما يدعو الإنسان إلى الإيمان بالوحي والخضوع له، بقدر ما يدعوه إلى النظر في الكون وتسجيل المعارف الممكنة منه بقدر طاقة الإنسان.

ولا يجعل القرآن معرفة الكون بطريق مختلف عن الوحي الإلهي ، بل كلاهما يتكاملان فيكونان معرفة صحيحة وسليمة من حيث هي، ومن حيث آثارها ونتائجها، يقول د. محمود الرشدان: «فالنظام المعرفي القرآني إذن يقوم على الجمع بين قرائتين متلازمتين متكاملتين ، قراءة كتاب الله المسطور(الوحي) وقراءة كتاب الله المنظور(الكون)[3]

---

(١) سورة البقرة: ٣١-٣٢

(٢) ينظر المبحث الذي أفرده د. راجح الكردي بعنوان: «المعرفة والوجود أثران للذات الخالقة» في كتابه نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص ٤٣٣ - ٤٣٥.

(٣) مجلة إسلامية المعرفة، العدد العاشر ، بحث د. محمود الرشدان حول النظام المعرفي في القرآن ، ص٢٧.

الكون مصدر للمعرفة الإنسانية:

الكون بكل أجزائه وجزئياته مصدر كبير للمعرفة الإنسانية وهذا ما يصرح به القرآن الكريم ويشير إليه في آيات لا تحصى.

إن القرآن تحدث عن السماء والشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح . . وتحدث عن الأرض بجبالها ووديانها وبحارها وأنهارها وعيونها، وذكر أنواع الحيوان الزاحفة والطائرة والماشية والسابحة، ذكر الفيل والحوت كما ذكر النمل والنحل والعنكبوت . . ، وذكر القرآن النخل والزيتون والرمان وأصنافاً أخرى من النباتات، وذكر الزلالزل والكوارث. . وسجّل كثيراً من حركة الإنسان على هذه الأرض وتفاعله معها.

وإن هذا الذكر في الكثير من الأحيان يأتي في مجال دعوة الإنسان إلى النظر والتفكر في صفحات هذا الكون الفسيح[1].

ولتتدبر هذه الآيات:

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون. ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن اياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾[2]

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون. ألم يروا إلى الطير مسخرات

(١) مجلة إسلامية المعرفة ، بحث د. محمود الرشدان، ص٣١.

(٢) سورة الروم: ٢٠-٢٤

في جوّ السماء لا يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين. والله جعل لكم مما خلق ظِلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾[1]

والملاحظ في هذه الآيات التنوع الواسع للنماذج التي اختارها القرآن ميداناً للبحث والتدبر ، ثم- وهذا هو الأهم- تأكيد هذه الآيات على معاني العلم والفكر والعقل والسمع والبصر والفؤاد، ثم الشكر والإيمان والإسلام. !!!

إن القرآن بهذا الربط يجيبنا عن سؤالٍ تلقائي: لماذا يهتم القرآن كل هذا الاهتمام بالمعارف الكونية؟

إن القرآن ليس كتاباً في العلوم الكونية«فليس القرآن كتاباً يهدف إلى عرض بعض القوانين التي تتحكم في الكون،إن له هدفاً دينياً جوهرياً»[2] إنه أراد أن يربط بين معرفة الكون ومعرفة الوحي وبعبارة أدق أراد أن يقيم من المعارف الكونية برهاناً لإثبات العقائد الغيبية ولذلك «فالعلاقة بين العلمين» علم الغيب وعلم الشهادة علاقة تكامل وتعاضد، لا علاقة تمانع وتدافع»[3] ، وربما يأتينا هذا في المباحث القادمة -إن شاء الله-.

الوحي مصدر للمعرفة الإنسانية:

إذا كان المقصود بالمعرفة الكونية تلك المعرفة التي تتحصل للإنسان

---

(١) سورة النحل: ٨١٧٨

(٢) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، الدكتور موريس بوكاي ، ص١٥٣.

(٣) مجلة إسلامية المعرفة ، العدد الخامس عشر ، بحث أستاذنا الدكتور عرفان عبدالحميد، «الإطار الفكري العام لنظرية المعرفة في القرآن الكريم»ص٨٠

نتيجة اتصاله بالكون المحيط به وتفاعله مع أجزائه، فلا ريب أن طاقة الإنسان في هذا محدودة، وحواسه قاصرة عن إدراك جميع ما في الكون من معارف وأسرار.

صحيح أن حواس الإنسان قد تضاعفت قدراتها بالمخترعات العلمية الحديثة كالمجهرات، والمركبات الفضائية والأقمار الصناعية، ووسائل الاتصال والمواصلات المعروفة، إلا أن هذه المخترعات العملاقة نفسها قد علمت الإنسان درساً بليغاً في التواضع أمام عظمة هذا الكون وسعته.

وكلامنا هذا كله عن الكون المنظور «عالم الشهادة» فإذا فكرنا في ما وراء هذا العالم فإن عجز الإنسان سيتجلى أكثر.

إن عجز الإنسان عن إدراك شيءٍ ما لا يعني عدم وجود ذلك الشيء[1]، «فالوجود أوسع من دائرة المعرفة ويتجاوزها، إذ ليس كل ما يعرفه الإنسان هو الموجود فحسب، ولكن ما لا يمكنه معرفته فلا يسوغ له أن يجزم بعدم وجوده»[2]، بل عليه أن يبحث عن طرق أخرى للوصول إليه.

ومن هنا يبدأ التفكير الصحيح للربط بين «المحسوس» و«اللامحسوس»، أو التوصل إلى «المجهول» من خلال «المعلوم».

إن المعرفة الكونية علّمت الإنسان الزراعة والصناعة والطب والفلك .. إلخ، ووجد الإنسان من خلال هذه المعرفة أن الكون منظم تنظيماً دقيقاً، وأنه موزون بميزان علمي دقيق فلا مجال فيه للفوضى والعشوائية.

---

(١) ومن الغريب أن يقول باحث يدعي الموضوعية مثل صادق العظم «عندما تسألني: وما علة وجود المادة الأولى فإن أقصى ما أستطيع الإجابة به: لا أعرف، إلا أنها غير معلولة الوجود» هوامش على كتاب نقد الفكر الديني، محمد حسين آل ياسين، ص١٣٩

(٢) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د. راجح الكردي: ص٤٣٣.

لكن هذا العلم ، الذي بني عليه الكون هل كان في فراغ؟! إن العلم صفة لابد لها من موصوف ، فهذه الخارطة أو الهندسة العلمية الرائعة التي بني عليها الكون لا بد لها من ذات عالمة نتجت عنها[1] ، فما هذه الذات التي نتج عنها هذا التدبير الموزون لكل أجزاء الكون؟

إنه من الظلم أن نسمي الاكتشافات الإنسانية لقوانين الكون ونظامه «علماً»، ولا نسمي نفس هذه القوانين «علماً».

إن هذه الأسئلة العقلية هي الرابط الأول بين «المعرفة الكونية» و«عالم الغيب» ، أو «الوحي».

فإذا ثبت عند الإنسان -لا محالة- وجود ذاتٍ عالمة قد اتصفت بالعلم بعد أن تعرف الإنسان على بعض آثارها في الكون ، فعلى الإنسان بعد هذا أن يبحث عمّا يمكن أن يعرفه عن هذه الذات العالمة.

ومن هنا تأتي قضية «الوحي» لتجيب الإنسان وتلبي طلبه المشروع، ولذا يقول الأشاعرة: «وأما من زعم أن الطريق إلى معرفة الحق الكتاب والسنة ، ويحرم ما سواهما، فالرد عليه أن حجتيهما لا تعرف إلا بالنظر العقلي»[2]

إن النظر العقلي المنصف في قصة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- على هذه الأرض وما عرف عنهم من صفات الخير المشتركة كالصدق والأمانة، والوفاء والجود، والصبر ونحو هذا ، وما جاءوا به من شرائع تلبي حاجة الإنسان أفراداً وأسر وجماعات، وتحقق فيهم الرحمة والتكافل والعدل ، وما أيدهم الله به من المعجزات الباهرة، كل هذا يطمئن الإنسان بأن هذا الطريق هو الطريق الحق للاتصال بعالم الغيب.

---

(١) يقول جمال الدين الأفغاني: «من الضرورات العقلية التي فطر عليها كل عاقل ، الانتقال من الأفعال المتقنة -عند رؤيتها- إلى علم فاعلها»، الأعمال الكاملة ، جمال الدين الأفغاني، ج١ ، ص٣٣٣.

(٢) منهج الأشاعرة في العقيدة ، د. سفر الحوالي، ص٣٤.

ومن هنا ينتقل الإنسان من «المعرفة الكونية» التي اكتسبها من تفاعله مع هذا الكون إلى «معرفة الوحي» التي يكتسبها بالتسليم للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين تميزوا عن البشر بتلقي الوحي ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إلى﴾[1] ، وهذه الانتقالة ليست انتقالة تغيير وتبديل، وإنما هي توسيع وتكميل ، يقول الدكتور عبدالرحمن الزنيدي: «فإنهما متكاملان في عملية المعرفة الإنسانية في كل مجالاتها حتى وإن كثف عمل كلٍ منهما في مجالٍ أكثر من الآخر».[2]

فإذا كانت المعرفة الكونية قد أجابت على أسئلة مهمة للإنسان مثل: كيف يعيش الإنسان على هذه الأرض؟ وكيف يستفيد من مواردها؟ وكيف يحافظ على كيانه؟

فإن المعرفة الثانية «الوحي» قد أجابت على أسئلة أهم وأشد خطورة مثل: من أوجد الإنسان والكون؟ وما الغاية من هذا الوجود؟ وماذا بعد هذه الحياة؟.

وإذا كانت المعرفة الأولى قد أنتجت علم الفلك والطب والفيزياء والكيمياء ، فإن المعرفة الثانية قد أنتجت علم العقيدة والفقه وأصول الفقه.. إلخ.

دور العقل في المعرفة:

ربما نستطيع أن نلخص الدور الذي منحه القرآن الكريم للعقل في النقاط الآتية:

أ - العقل والمعرفة الكونية:

الإنسان يشارك سائر الحيوانات بالإدراكات الحسية ، بل أن بعض

---

(١) سورة الكهف: ١١٠

(٢) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، ص٦١٦

الحيوانات يمتلك حواساً أقوى وأنفذ كحاسة الشم عند الكلاب ، والنظر عند الصقور.

إلا أن الإنسان يتميز على سائر الحيوانات بالعقل القادر على تحويل المدركات الحسية إلى علوم محفوظة وخبرات متراكمة ، بل والوصول إلى ما وراء هذه المحسوسات.

من هنا جاء اهتمام القرآن بالعقل وأنشطته في النظر والتفكر والتدبر والاستنباط .. إلخ . ولنأخذ هذه النماذج من آيات الذكر الحكيم: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[1] ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[2] ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزّل من السماء ماءً فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[3]

إن هذه الدعوات المتكررة لربط العقل بهذا الكون الكبير تؤكد لنا قدرة العقل الإنساني على التفاعل مع الكون وبناء المعرفة الكونية، إلا أن هذا ليس كل الحقيقة، فالقرآن يريد من التفاعل هذا بين العقل والكون الوصول إلى جملة الحقائق الإيمانية الكبيرة كالإيمان بالله واليوم الآخر، يقول الألوسي -رحه الله-: «فمن تأمل في تلك الآيات وجد كلاً منها مشتملاً على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده -تعالى- ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية».[4]

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤

(٢) سورة النحل: الآية ٦٩

(٣) سورة الروم: الآية ٢٤

(٤) تفسير الألوسي :ج٢، ص٣٣

ولتدبر هذه الآيات:

﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾[1] ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾[2] ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنّاتٍ وحبَّ الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾.[3]

يقوم ابن عطية -رحمه الله- في تفسير هذه الآيات الأخيرة: «وهذه الآيات كلها إنما هي أمثلة وأدلة على البعث والخروج يريد به الخروج من القبور»[4].

أما الآيات الأولى فهي واضحة الدلالة، وكلها تريد الوصول بالعقل من المعرفة المحسوسة إلى المعرفة الإيمانية الأوسع.

ب - العقل والوحي:

لقد مر معنا أن تفاعل العقل مع المحسوسات من حوله قد انتقل بالعقل إلى الإيمان بعالم آخر غير المحسوس «عالم الغيب» «ولكن هذا العقل بما أوتي من فعالية من خلال طبيعته وتكوينه، ومن خلال تعامله مع عالم الشهادة لا يستطيع أن يقدم شيئاً تفصيلياً للمعرفة في عالم الغيب سوى التسليم بوجوده من خلال قوانين عالم الشهادة نفسه، من قوانين سببية وعلّية، ومن خلال دلالة آثار عالم الغيب في عالم الشهادة»[5].

(١) سورة الطور: ٣٥-٣٦
(٢) سورة النمل: ٦٠
(٣) سورة ق: ٧-١١
(٤) تفسير ابن عطية، ج١٣، ص٥٣٥، وانظر تفسير الرازي ج١٤، ص١٦٠.
(٥) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د. راجح الكردي، ص٧٠٣-٧٠٤.

وإذا توصل العقل إلى الإيمان بوجود عالم غير عالم الشهادة واعترف بعجزه عن إدراك تفاصيل هذا العالم ، فلا بد من أن يبحث عن طريق آخر.

إن القرآن يقدم«الوحي» على أنه المصدر الحق الذي يستقي منه الإنسان معارفه الغيبية، الوحي المنزّل على صفوة من الناس وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - الذين قامت الدلائل الجلية على صدقهم فيما يبلغون - وليس هنا مجال تفصيل هذه الدلائل- والعقل مطالب مع هذا النوع من المعارف بالتلقي والتسليم.

يقول الدكتور -عبدالحليم محمود- رحمه الله-:«وما دام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع ، أو بتعبير أدق السجود ، وهو ليس سجوداً تعسفياً أو تحكمياً ، وإنما هو سجود مصدره الإيمان اليقيني بأن هذا من عند الله ، وما دام من عند الله فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . إن الله - في عظمته وجلاله سبحانه- لا يلقي برسالته ليبحثها الإنسان، ويبدي فيها رأيه نفياً أو إثباتاً ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[1]

وهذا التسليم للوحي ليس في الجوانب الاعتقادية الخبرية فقط ، وإنما أيضاً في تفاصيل الأحكام العملية «العبادات والمعاملات والأخلاق التي شرعها الله للناس»﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[2]

إلا أن هذا التسليم لا يعني إلغاء دور العقل ، بل إن الوحي الذي أمرنا بالتسليم له هو الذي دعانا لإعمال العقل مع نصوص الوحي ، ولنتدبر هذه الآيات: (آلر. تلك ايات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآناً عربياً

---

(١) الإسلام والعقل، د. عبدالحليم محمود ، ص٢١ -٢٣، والآية (٦٥) من سورة النساء.

(٢) سورة المائدة: ٤٤

لعلكم تعقلون﴾[1]

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[2]
﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[3] .

ربما نستطيع أن نتلمس دور العقل مع نصوص الوحي في النقطتين الآتيتين:

أ - تدبر نصوص الوحي للوصول إلى معرفةٍ يقينية أن هذه النصوص من الله ، وهي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولنقرأ هاتين الآيتين:

﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[4]

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾[5]

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله- :«ومن فوائد التدبر لكتاب الله أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله ، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً . . . بذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور»[6] .

ب - تدبر النصوص لفهمها واستنباط الأحكام منها ثم العمل بها.

---

(١) سورة يوسف: ٢١
(٢) سورة ص : ٢٩
(٣) سورة النمل: ٤٤
(٤) سورة النساء: ٨٢
(٥) سورة المائدة: (الآية٨٣)
(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبدالرحمن السعدي، ج١ ص٢٢٣.

والقرآن يجعل هذه تابعة لما قبلها ويسوقها في موضع واحد فيقول:

﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[1].

قال ابن عطية -رحمه الله-: «لعلمه طلابه من أولي الأمر، والبحثة عنه- وهم مستنبطوه كما يستنبط الماء . . . وهذا التأويل جار مع قول عمر -رضي الله عنه- أنا استنبطته ببحثي وسؤالي»[2].

وهذا التدبر هو الذي ينتج «العلم» ، و«الفقه». يقول القرآن الكريم: ﴿وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبيّنه لقوم يعلمون﴾[3] ﴿وتلك الأمثال نضربها للنا وما يعقلها إلا العالمون﴾[4] ﴿أنظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون﴾[5] ، ﴿قد فصّلنا الآيت لقوم يفقهون﴾[6]

دور الحواس في المعرفة:

صحيح أن العقل قد يستقل بقدرته الذاتية على إدراك بعض المعارف الضرورية أو المنطقية، وهي المعرفة التي يشترك فيها جميع العقول[7] ، والتي لا تحتاج إلى التجربة الحسية، فقد يتوصل العقل بالنظر المجرد أو بالبداهة إلى بعض الحقائق مثل: الكل أكبر من جزئه والضدان لا

---

(١) سورة النساء : الآيتان(٨٢ - ٨٣)

(٢) تفسير ابن عطية ، ج٤، ص١٥٠ وأصله في مسلم(فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر) صحيح مسلم ،ج٢، ص١١٠٨

(٣) الأنعام : الآية (١٠٥)

(٤) العنكبوت: (الآية (٤٣)

(٥) الأنعام: الآية:(٦٥)

(٦) الأنعام: (الآية (٩٨).

(٧) ندوة الذكرى الألفية لإمام الحرمين الجويني، جامعة قطر ، بحث الدكتور عبدالله حسن زروق، نظرية المعرفة عند إمام الحرمين، ص١٧٢.

يجتمعان، «وقد يقوم العقل بطريقة عقلية صرفة بالجمع بين معرفة عقلية ومعرفة أولية أو بين معرفتين عقليتين بطريقة عقلية ليصل إلى معرفة جديدة وراء العالم المشاهد ولا يستطيع أن ينالها بعمل العقل مع الحواس لأنها من طبيعة عالم الغيب التي هي ليست تجريبية»[1].

إلا أن هذه المعارف العقلية المحضة تبقى محدودة وصغيرة نسبياً أمام المعارف التي يحصل عليها العقل عن طريق تفاعل حواس الإنسان مع مصادر المعرفة الرئيسية : الكون والحي.

والله تبارك وتعالى هو الذي زود الإنسان بهذه الحواس ليستخدمها في تحصيل أنواع المعارف ، يقول القرآن الكريم: ﴿قل هو الذي أنشأكم في الأرض وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[2] ويؤنب القرآن الذين يعطلون هذه الحواس عن ممارسة دورها المعرفي فيقول: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[3]

وفي آية أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾[4]

ويقول أيضاً: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾[5]

فإذا كان عمل الحواس السليمة من أسباب المعرفة فإن تعطيلها من أسباب الغفلة«فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا ، ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود . . وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا

(١) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، د. راجح الكردي، ص٦٢٨.
(٢) سورة الملك : الآية (٢٣)
(٣) سورة الأعراف : الآية(١٧٩)
(٤) سورة البقرة: الآية (١٧١)
(٥) سورة الأنعام :الآية (٥٠)

آيات الله الكونية ، ولم يفتحوا أذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوّة»[1]

والدور المعرفي الذي رسمه القرآن الكريم للحواس نلخصه في النقطتين الآتيتين:

أ - دور الحواس في المعارف الكونية :

لقد أمرنا القرآن الكريم بإعمال حواسنا في هذا الكون الفسيح من حولنا بآيات كثيرة مثلما أمرنا بإعمال العقل، ولنقرأ هذه الآيات:

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾[2] ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً. ثم شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلباً. وفاكهة وأبّاً. متاعاً لكم ولأنعامكم.﴾[3]

﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾[4]

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[5]

﴿أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[6]

وواضح أن دور الحواس هنا يتكامل مع دور العقل في تكوين

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ، رحمه الله ، ج٣ ، ص٦٨٤.
(٢) سورة الغاشية: ١٧ -٢٠.
(٣) سورة عبس ، ٢٤ - ٣٢
(٤) سورة يونس : ٦٧
(٥) سورة آل عمران، ١٣٧.
(٦) سورة العنكبوت، ١٩-٢٠

المعرفة الكونية والتي يريد منها القرآن التوصل إلى المعرفة الغيبية[1] «الوحي» ، كما مر وكما تشير الآيات الأخيرة.

ب - دور الحواس في معارف الوحي :

مثلما أمرنا القرآن بإعمال حواسنا في جوانب الكون أمرنا كذلك بإعمال حواسنا في نصوص الوحي ، ولنقرأ هذه الآيات: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون. واذكر ربك في نفسك تضّرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدّو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾[2]

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[3]

﴿وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾[4]

وواضح من هذه الآيات حرص القرآن على أن يسمع الناس آياته حتى المشرك الخائف نحميه ونسمعه القرآن، ثم نبلغه مأمنه ، ونترك له الخيار فيما بعد ﴿لا إكراه في الدين﴾[5] .

وقد فطن أعداء القرآن لهذا وعلموا أن مجرد استماع القرآن هو طريق الهداية، ولذلك قالوا: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[6] .

---

(١) ينظر البحث الذي قدمه د. يوسف الصديقي : «أصول نظرية المعرفة عند إمام الحرمين»، الندوة الألفية لإمام الحرمين ، ص٢٧٤.

(٢) سورة الأعراف: : ٢٠٤ - ٢٠٥

(٣) سورة التوبة: الآية ٦

(٤) سورة النمل: الآية ٩٢

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٦

(٦) سورة فصلت: الآية ٢٦

دَور العبادة والأخلاق في المعرفة:

العبادة هي الغاية الكبرى لخلق الإنسان﴿وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون﴾[1].

وهي بالتالي الغاية من إرسال الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾[2].

وقد ربط القرآن بين هذا الجانب السلوكي عند الإنسان وبين الجانب المعرفي[3]، بروابط كثيرة نلخصها فيما يأتي:

أ - العبادة والأخلاق هما غاية المعرفة. ﴿ومن الجبال جدد بيض وحُمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[4]

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق. يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾[5]

وواضح أن الآية الأولى ربطت هذا الجانب بالمعرفة الكونية، والثانية ربطته بمعرفة الحق «الوحي».

ب - إن هذا الجانب السلوكي إذا اختل فإنه سيؤثر على المعرفة الإنسانية ومن جوانب كثيرة، ولنأخذ هذه الأمثلة من الآيات: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦

(٢) سورة نوح: ٢-٣

(٣) ينظر إحياء علوم الدين، ج١، ص٢٣-٢٤

(٤) سورة فاطر: ٢٧، ٢٨

(٥) سورة المائدة: ٨٣-٨٤

ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾[1] ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾[2]

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[3].

وإن القرآن هنا ينبه العقلاء من البشر أن معارفهم الإنسانية كلها مهددة بالجحود والتحريف والتضليل نتيجة لفساد ذمم الناس وسوء أخلاقهم«الظلم والعلوّ والطمع.. إلخ . فإذا كانت الكتب المقدسة «التوراة والإنجيل» قد تعرضت للتحريف من قبل العالمين بها حرصاً على مصلحة دنيوية زائلة، فما بالنا بمعارف التاريخ والسياسة والاقتصاد . . إلخ.

ج - إن هذا الجانب له صلة وثيقة بكسب بعض المعارف سلباً وإيجاباً ولنقرأ الآيتين التاليتين: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾[4]

﴿سأصرف عن آياتي الذي يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾[5]

إن القرآن هنا يجعل التكبر سبباً للصرف عن «آيات الله» ويجعل الجهاد في سبيل الله سبباً للهداية إلى «سبيل الله» ، و«آيات الله» و «سبل الله» بمعنى، وهذا معناه أن مجاهدة النفس وحملها على الأخلاق الحميدة تقوي قابلية الإنسان لتحصيل المعرفة من مصادرها الصحيحة.

---

(١) سورة النمل : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة البقرة : ٧٥
(٣) سورة البقرة : ٧٩
(٤) سورة العنكبوت : ٦٩
(٥) سورة الأعراف: ١٤٦

إنه من المكابرة أن ينكر الإنسان دور الإخلاص والصدق والتواضع في تحصيل المعارف بصورة عامة، فكيف إذا كانت هذه المعارف متصلة بمقام الإيمان والتقوى؟«فإن قلت كم من طالب ردئ الأخلاق حصل العلوم، فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع»[1] .

كما أنه من الشطط أن تنفرد هذه الصفات السلوكية في المعرفة، أو تكون مصادر مستقلة للمعرفة تحت مسمى «الروح، أو «الذوق»، أو «البصيرة» . . . إلخ ، لأن هذه ليس لها مجال معروف ، ولا قواعد ضابطة، وقد يختلط فيها الحق بالباطل ، ويكثر فيها الإدعاء.

والقرآن كان دقيقاً في العبارة فقوله:﴿لنهدينّهم سبلنا﴾ أوضح أن الهداية إنما تكون إلى سبل الله ، وسبل السلام فيما شرعه الله وبيّنه ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[2]

ولذلك قال -تعالى- :﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾[3]

وتفسير السلف لهذه الآيات ونحوها جاء متعاضداً لتقرير هذا المعنى وإن اختلفت عباراتهم.

يقول الضحاك -رحمه الله- «والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبيل الثبوت على الإيمان» ويقول سفيان بن عينية -رحمه الله - «إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله يقول: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[4] .

---

(١) إحياء علوم الدين ، ج١ ص٦٧

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) سورة المائدة: ١٥-١٦.

(٤) تفسير ابن عطية ، ج١١ ، ص٤١٩.

ولا يبعد عن هذا قول الإمام الغزالي - رحمه الله-: « فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله. .إنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾[1]. لأنه من المعلوم أن أسماء الله وصفاته توقيفية ومردها إلى نصّ الكتاب والسنة وعلى هذا تكون هذه الهداية في إطار «الوحي المنزّل «فهماً وتدبراً وعملاً وثباتاً ، وليست هي في إطار آخر -إلا اللهم ما كان من قبيل الكرامة «الكشف»[2] ، وليس هنا محل تفصيله -إلا أنه من المقطوع به أن الكشف ليس مصدراً من مصادر التشريع فلا تقوم به حجة، ولذا جاء في تفسير ابن كثير عن هذه الآية: «ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر فإذا سمعه في الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما في قلبه.[3]

دور اللغة والبيان في المعرفة:

قد يرغب المرء في تحصيل نوع من أنواع المعارف ، فتحول بينه وبينها اللغة «فإن الحواس والعقل لا يستغنيان عن اللغة لأن كلاهما يعبّر عن الصورة الذهنية التي يحدثها إدراك الشيء بلفظ يشير إلى هذه الصورة»[4]

من أجل هذا لم يرسل الله رسولاً إلا بلسان قومه: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾[5] ،

ويقول -تعالى-: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً

---

(١) إحياء علوم الدين ، ج١ ، ص٣٤.
(٢) المنقذ من الضلال ، ص١٢٧
(٣) تفسير ابن كثير ، ج٣، ص٤٢٢.
(٤) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د. راجح الكردي، ص٦٢٢.
(٥) سورة إبراهيم: الآية ٤.

لداً﴾[1]

ويقص القرآن علينا قصة موسى -عليه السلام- وكيف سأل -الله تعالى- حاجتين قبل توجهه لأداء مهمته الكبيرة ، أما الأولى فكانت: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾[2] ، وأما الثانية فكانت: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾[3] .

ومن هنا كان القرآن في غاية البيان ﴿تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾[4] .

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[5] ،

وجعل القرآن مهمة الرسول -صلى الله عليه وسلم - الأولى هي البيان فقال: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[6]

وكل هذا يحمل دعوة واضحة للدعاة والمدعوين ، والعلماء والمتعلمين أن يتنبهوا للغة التخاطب، ولغة المعارف، ولغة العصر، ولغة البيئة التي يعيشون فيها.[7]

---

(١) سورة مريم: الآية ٩٧.
(٢) سورة طه: ٢٧ - ٢٨
(٣) سورة القصص: الآية ٣٤.
(٤) سورة الحجر: الآية ١.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٥.
(٦) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٧) ينظر المبحث الذي كتبه أحمد عصام الصفدي، بعنوان: «مكانة اللغة في نقل المعرفة» في كتابه تصنيف المعرفة والعلوم ، ص١٥٧ -ص ١٦٢.

الترغيب والترهيب ودورهما في المعرفة:

ويقصد به ترغيب القرآن بالعلم وتكريمه لأهله، وترهيبه من الجهل وما يتصل به.

وهذا الجانب ينبغي أن لا يهمله الباحثون والكاتبون في المعرفة لأن القرآن الكريم لم يقدم المعرفة بطريقة «أكاديمية» نظرية مجردة، وإنما ربطها بعناصر التشويق والتشجيع الإيماني والعاطفي، لأن الله -تبارك وتعالى- يعلم أن هذا الإنسان لا يتحرك بالنظريات العقلية المجردة، بل الإنسان مزيج من العقل والعاطفة، وبهما ينفعل ويتفاعل.

لقد كان للترغيب والترهيب القرآنيين الدور الكبير لرقي الأمة في سلّم العلوم المختلفة، والمعارف المنوعة بعدما كانت تعيش حالة«الجاهلية».

ولنأخذ الآن صوراً من الترغيب:

رغب القرآن في طلب العلم والحث عليه فقال: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾[1]

وفي هذا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- :(من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة[2]

وفي مقام تكريم أهل العلم يقول القرآن: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[3]

ويقول : ﴿يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات﴾[4]

وفي مقام الحث على الحوار والمجادلة يقول القرآن: ﴿ادعُ إلى سبيل

---

(١) سورة طه: الآية ١١٤.

(٢) رواه مسلم ، السراج الوهاج، شرح صحيح مسلم، ج١٠، ص٥٥٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ٩.

(٤) سورة المجادلة: الآية ١١.

ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1]

وفي الحث على السؤال يقول القرآن: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[2]

ولننظر الآن في هذه الصور من الترهيب:

ذم القرآن الجهل والجاهلين بأكثر من أسلوب فقال مثلاً: ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾[3] وقال: ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾[4]

وذم القرآن الغفلة والغافلين فقال: ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[5]

وذم التقليد الأعمى لموروثات الآباء والأجداد، فقال: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون. فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾[6].

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.
(٢) سورة النحل: الآية ٤٣.
(٣) سورة الأعراف: الآيتان ١٣٨ -١٣٩
(٤) سورة النمل: الآية ٥٥.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.
(٦) سورة الزخرف: الآية ٢٣ -٢٥.

الخاتمة

في نهاية هذا الجهد أسجل أهم ما توصلت إليه بالنقاط المختصرة الآتية:

- أعطى القرآن الكريم عناية واضحة بالمعرفة ومصادرها ووسائلها ، ويظهر هذا من خلال مئات الآيات التي رعت هذا الموضوع وبألفاظ مختلفة وأساليب متنوعة.
- لم يرد في القرآن الكريم إضافة المعرفة صفة لله -تعالى- بخلاف العلم، مما يشير إلى أن العلم أكمل من المعرفة بوجه ما ، ولذا تنسب المعرفة إلى الإنسان ولا يجوز نسبتها إلى الله.
- الله في القرآن الكريم هو المصدر الأول للمعرفة الإنسانية ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾، فالله خالق الإنسان ووسائل إدراكه والله خالق الكون ومنزّل الوحي ، وهما مصدرا المعرفة لدى الإنسان.
- الكون هو المصدر المفتوح أمام الإنسان، وذكر الكون الواسع بأجزائه وصفاته جاء مقروناً بالتفكر والتدبر بعددٍ كبير من آيات القرآن الكريم ، كما شجع القرآن الإنسان على إعمال جميع حواسه في هذا الكون مع العقل للوصول إلى المعارف المطلوبة.
- والوحي هو المصدر المقصود أصالة، وحديث القرآن عن الوحي حديث عن القرآن نفسه فليس القرآن إلا وحياً، وليس حديث القرآن عن الكون إلا لتحصيل نوع من المعارف تقود في النهاية إلى استشعار الحاجة إلى الوحي ، فالنظر في الكون والتفكر فيه يقودان إلى الإيمان بعالم غيبي -لا محالة- يقف وراء هذا الكون، وعقل الإنسان وحواسه عاجزة عن إدراك هذا العالم الغيبي، وهنا يأتي

«الوحي» المصدر الأمين لمعارف الغيب.

- وأما العقل والحواس فالقرآن يعدها جميعاً وسائل لإدراك المعارف الكونية ، و«معارف الوحي»، وقد ربط القرآن بين العقل والحواس من جهة ، وبين الكون أولاً والوحي ثانياً بآيات كثيرة، وحث على إعمال العقل والحواس مع أجزاء الكون ، كما حث على أعمالها في آيات الذكر ، ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾.

- وأما الصفات القلبية أو الروحية كالإخلاص والصدق والمجاهدة والتجرد من الهوى والصفات الرذيلة فإنها منشطات ومساعدات لفهم الوحي والثبات على الحق قولاً وعملاً ، وليست هي مصادر مستقلة عن الكون أو الوحي، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وسبل الله -لاشك- أنها في الإسلام نفسه ومصادره المعروفة.

والله أسأل أن يكون هذا البحث نافعاً وخالصاً لوجهه الكريم . . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر

١ - إحياء علوم الدين ، حجة الإسلام الغزالي، دار الثقافة ، الجزائر ، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٢ - الإسلام والعقل ، الدكتور عبدالحليم محمود ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ.

٣ - إسلامية المعرفة ، مجلة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، العدد ١٠-١٥.

٤ - الأعمال الكاملة: جمال الدين الأفغاني ، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٥ - تصنيف المعرفة والعلوم ، أحمد عصام الصفدي ، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب ، الرياض ، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٦ - التعريفات ، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٧ - تفسير ابن عطية المسمى «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» ، أبو محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي، تحقيق عبدالله الأنصاري، والسيد عبدالعال، الدوحة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

٨ - تفسير ابن كثير المسمى «تفسير القرآن العظيم» للإمام إسماعيل ابن كثير الدمشقي ، دار المعرفة ، بيروت، ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

٩ - تفسير الألوسي المسمى «روح المعاني» ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، (ت ١٢٧٠هـ) مكتبة دار التراث ، القاهرة.

١٠- تفسير الرازي المسمى «التفسير الكبير» للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

١١- تفسير السعدي المسمى «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، جمعية إحياء التراث الإسلامي ، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

١٢- تفسير سيد قطب المسمى«في ظلال القرآن» ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة السابعة ، ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

١٣- الحقيقة ، الدكتور نظمي لوقا ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

١٤- القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، الدكتور موريس بوكاي ترجمة ونشر مكتبة مدبولي ، القاهرة، الطبعة الأولى ، ١٩٦م.

١٥- مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم مكتبة المعارف، المغرب ،

١٦- المستقبل العربي، مجلة فكرية ، العدد ٦٧، سنة ١٩٨٥م.

١٧- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبدالرحمن بن زيد الزنيدي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، مكتبة المؤيد ، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

١٨- المنقذ من الضلال حجة الإسلام الغزالي ، المطبوع مع المجموعة الكاملة للدكتور عبدالحليم محمود ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م.

١٩- منهج الأشاعرة في العقيدة ، الشيخ سفر الحوالي ، الدار السلفية ، الكويت ، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

٢٠- منهج السلف بين العقل والتقليد، د. محمد السيد الجليند ، دار قباء ، القاهرة ، ١٩٩٩م.

٢١- ندوة الذكرى الألفية لإمام الحرمين الجويني ، كلية الشريعة ، جامعة قطر ، الدوحة ، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

٢٢ -نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د. راجح عبدالحميد الكردي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة المؤيد، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٢٣- هوامش على كتاب نقد الفكر الديني، الشيخ محمد حسين آل ياسين، والأصل للدكتور صادق العظم ، دار النفائس ، بيروت، الطبعة السابعة ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.